أزمة بلا مازومين

من بين التعبيرات الموفقة فى اللغة الإنجليزية : عبارة « تفكير التمنى » أو « تفكير الأمانى » : فكثيراً ما يفكر الناس فى أمور لا وجود لها ، ولكنهم من فرط تعلقهم بها ، يحسبونها أمراً واقعاً ، ويرتبون على وجود هذا « الموهوم » نتائج تتسلسل وتطول .

ومن أوضح الأمثلة على ما يخلقه التمنى هو ما تواضعنا على تسميته « بالفكر الإسلامى الحديث » ، فقد طال انتظارنا لهذا الفكر الإسلامى ، واشتدت رغبتنا فى أن يخرج إلى الوجود ، وأن يسهم بالعناء والنقد ، والاقتراح والإلهام ، والتوجيه والإرشاد ، والمقاومة والمعارضة ، فى تكييف حياتنا وحل مشكلاتنا .

ولكن الأمة الإسلامية فى عصرها الأخير — وإن كانت قد حملت هذا الفكر ، ودفعت ما تدفعه من ضرائب الحمل ، من قلق وضيق ، ومن غثيان ودوار ، ومن ضعف ووهن — لم تضع بعد حملها ، حتى ظن بعض الأطباء ، أنه حمل كاذب . .

ولكننا رفضنا أن نسلم بهذه الحقيقة المرة ، وأبينا إلا أن نتعامل مع الفكر الإسلامى باعتباره واقعاً يلمس ويرى ، ويتحرك بيننا ويعمل بالأحياء ، ولكى نؤكد لأنفسنا حقيقة وجوده تصورنا له من أدوار الأحياء وأدوائهم ، كل شىء : فأعلنا — فيما أعلنا — أن « الفكر الإسلامى فى أزمة » .

ولا بأس من هذا كله ، فإن هذه أعراض التطور المأمول ، ولابد أن يسبق الحلم الواقع ، وأن يمهد الوهم للحقيقة ، ولابد من شىء من الخيال ، لنخلق حياة جديدة ، ولنغير واقعاً كريهاً .

والحق أن المسلمين ، ونعنى مفكريهم وعلماءهم ، وأدباءهم

وشعراءهم ، قدموا للفكر الإسلامى الحديث هذا الوليد المرتقب ، فى القرن الأخير ، ما كان جديراً بأن يبعث هذا الفكر ، صبياً فتياً ، مليئاً بالحيوية ، راغباً فى المناجزة والقتال ، بارعاً فى الكر والفر ، قوى الساعد ، مسدد الإصابة . ففيم تأخر ميلاده ولِمَ طالت فترة الوضع ؟

يقول الشيخ عبد الوهاب خلاف فى بيان أسباب جمود المسلمين ، وتحجر فكرهم :

جمد التشريع الإسلامى ، ووقف عن مماشاة الزمن عن التطور بتطور المسلمين ، وزاد هذا الجمود تحجراً أن علماء المسلمين رسموا الإجماع بصورة لا سبيل إلى أن تتحقق فى الوجود ، وسموه بأنه اتفاق جميع المجتهدين فى الأمة الإسلامية بعد عهد الرسول على حكم شرعى . وقرروا أن الإجماع لا يتحقق إلا إذا عرف جميع المجتهدين من المسلمين فى العالم الإسلامى ، وأحصوا ، وأبدى كل منهم رأيه صراحة فى الواقعة المفروضة ، وعلم رأى كل واحد منهم ، وعلم أن كل واحد منهم أصر على رأيه إلى أن تم إبداء كل واحد رأيه ، وكأنهم أرادوا إجماعاً عالمياً قاطعاً فى الحكم الذى ينعقد ، لا ما أراده الرسول حين قال لعلى : «أجمعوا له العالمين من المؤمنين واجعلوه شورى بينكم ولاتقضوا فيه برأى واحد ، فهو إنما أراد أن يكون الرأى للجماعة لا للفرد » .

والمعلوم أن مصادر الأحكام فى الإسلام هى القرآن وسنة الرسول عليه السلام ثم الإجماع . وقد عرفت ما يفهمه من الإجماع فقهاء المسلمين فى أيامهم الأخيرة .

وما يقوله الشيخ عبد الوهاب خلاف ، عليه رحمة الله، ليس المرض وإنما هو العرض كما سبق القول. فلماذا تشدد فقهاء المسلمين وعلماؤهم هذا التشدد الذى يبدو معجزاً ، فى حين بدأت حياة المسلمين الفكرية باجتهاد الرسول عليه الصلاة والسلام ، واجتهاد صحابة الرسول وهو بين ظهرانيهم ، واجتهاد الصحابة والخلفاء بعد حياة رسول الله ؟ لماذا

قال الرسول صلى الله عليه وسلم : لا تقطع الأيدى فى السفر ؟ أى لا تقطع يد السارق إذا كان المسلمون فى حرب ؟ لماذا عطل عمر رضى الله عنه حق المؤلفة قلوبهم ، وهو حق منصوص عليه فى القرآن ، وكان الرسول يؤديه لهم ، وجرى على نفس النهج أبو بكر رضى الله عنه ؟ لماذا نهى عمر عن زواج أمراء المسلمين من الكتابيات وهو جائز بنص لا خلاف عليه ؟

كل ذلك لأن الحياة تسبق التفكير وتلده ؛ فإذا خرج للوجود ، ورأى نور الدنيا ، وسع آفاق الحياة وأغناها ، وأمدها كل يوم بجديد ، ثم راح الاثنان : الحياة والتفكير ، يتفاعلان ويتبادلان الخبرات .

لكن لابد أولا من إرادة الحياة . ولو نظرنا فى تاريخ المسلمين لوجدنا أنه بدأ بدعوة بسيطة هى أن خالق هذا الكون كله واحد ، وأنه ليس كمثله شىء ، وأن جميع الأوثان والأصنام والأرباب والأحبار وأدعياء الولاية والكهان ، ومن يجرى فى فلك الملوك والسلاطين والشيوخ والرؤساء ، مخلوقات هذا الخالق الأسمى . ولما رضى المسلمون بهذه العقيدة وحدتهم ، وجعلت من العرب أمة ؛ وعندها تلفتوا حولهم فى هذا الكون البديع ، وقد تفجر فهمهم لعلم أحكامه وقوانينه وكشف خفاياه وخباياه ، وتذوق ما فيه من جمال ، وأدركوا ما يتخلله من دقة ورقة ، فإذا هم علماء مبدعون ، ومشرعون مقننون ، وقادة جيوش ، ومؤسسو دول ، ثم شعراء وأدباء ، وصانعو أساطير ، وفنانون وصناع .

فقهاء المسلمين كانوا يجتهدون ، وكانوا يشعرون أن هذه الحياة حياتهم ، وأن هذه الدنيا دارهم ، وأن هذا الكون الفسيح يدعوهم إلى التأمل والدرس ، والابتكار والخلق ، وأنه ليس هناك ربع خال لا تدوسه الأقدام ، ولا حرم منيع لا تتخطى إليه الأفكار . قالوا كل شىء : توهموا وشكّوا ، وتحققوا وآمنوا ، وراجعوا القديم وعلقوا عليه ، وأضافوا إليه ، واختلفوا حوله ، فاستحرت الخلافات ، وتعدّدت المذاهب

والمدارس . ولكن لما أدال الزمان على المسلمين . وسلبهم استقلالهم ، وجعل بلادهم حمى مستباحاً لكل أجنبي . ولكل عقيدة وثقافة وحضارة ولغة . انكمشت نفوسهم . وضؤلت عزائمهم . وخافوا من كل شيء حتى من دينهم . وأمهات الكتب التي وضعها فقهاؤهم وعلماؤهم . فانقطعت الصلة بينهم وبين أصل ثقافتهم . وأصبحوا مستهلكين لا ينتجون شيئاً ويستوردون كل شيء : الملابس والمآكل . والكتب والأفكار ، والأنظمة والمبادئ . وتسولوا فأصبح دينهم ملكياً وجمهورياً وفاشيستياً وديموقراطياً واشتراكياً ، ورجعياً . فإذا صعد الناس إلى القمر ، قالوا في القرآن تنبؤ بذلك ، وإن حطمت الذرة ، قالوا إن في القرآن بياناً لهذا التحطيم .

ولو لم تغادر إرادة الحياة المسلمين ، وتتخلى عنهم ، لما وضعوا هذه الشروط المعجزة لمصدر من مصادر أحكام دينهم ، يضمن له متابعة الحياة ، وملاحقة تطوراتها . ويقول الأستاذ أبو زهرة في هذا المعنى : « وقد يخلو بعض الأقاليم أو بعض العصور من المجتهدين ، وليس ذلك لأن الاجتهاد محرم وبابه مقفل ، بل لأن المدارك لم تتجه والهمم تقاصرت ، وإن كان السبب ميسراً والباب مفتوحاً » .

بل لو أن هذه الإرادة تعيش شاكية سلاحها ، لاجتمع مجتهدو المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها بأيسر الجهد . فما أكثر ما يجتمع علماء الطب أو العلوم الطبيعية أو الاجتماعية في مؤتمرات دولية ، ومؤتمر لمجتهدي المسلمين لا يمكن أن يكون أبعد منالا من مؤتمر يضم المشتغلين بأي علم من علوم الإنسان وبخاصة أن دافع علماء المسلمين سيكون دنيوياً ودينياً ، في حين لا يكون لعلماء الفلك أو الهندسة إلا دافع دنيوي بحت . وللمسلمين مؤتمر سنوي يمكن أن يغني عن سواه من المؤتمرات ، هو مؤتمر الحج .

ومع ذلك فإن في هذا الإجماع آراء لبعض الأئمة والفقهاء ، من

ذلك ما نقل عن ابن حنبل فى قول . وعن الشافعى فى قول آخر : « من ادعى بالإجماع فهو كاذب » فى حين يقول الشيخ شلتوت : « ولا أكاد أعرف شيئًا اشتهر بين الناس أنه أصل من أصول التشريع فى الإسلام ثم تناولته الآراء واختلفت فيه المذاهب من جميع جهاته كهذا الأصل الذى يسمونه الإجماع » فاحتشاد الصعاب فى طريق اجتماع الأئمة ليس مرده إلى الدين ، ولا إلى شىء فى قواعد الإجماع . وإنما هو ما أصاب المسلمين أنفسهم ، فنحى الإسلام عن حياتهم ، ونحاهم عن الحياة . ولذلك يصعب القول — أو يستحيل — إن التفكير الإسلامى فى أزمة ، فإننا مهما تمنينا أن تقع هذه الأزمة ، وتستفحل ، باعتبارها علامة حياة ، فإنها لن تقع حتى يخوض المفكرون الإسلاميون مشكلات الحياة الحاضرة . يفكرون فيها ، ويفكرون لها ، ويقترحون مستوحين دينهم وتراثهم ، ولا يقتصر دورهم على عرض التراث الإسلامى وتنقيحه . على الرغم من أن هذا الدور عظيم ولا مناص منه . ولكن حينما نفرغ منه ينبغى أن يقدم الإسلاميون للناس نظامًا يعيشون فى ظله ، يعطيهم مالا تعطيهم أنظمة غيرنا . وعندها ستنفرج الأزمات ، وبانفراجها ندل على أن تفكيرنا كائن حى ، يكسب من كل ما يعرض له من شر وخير .